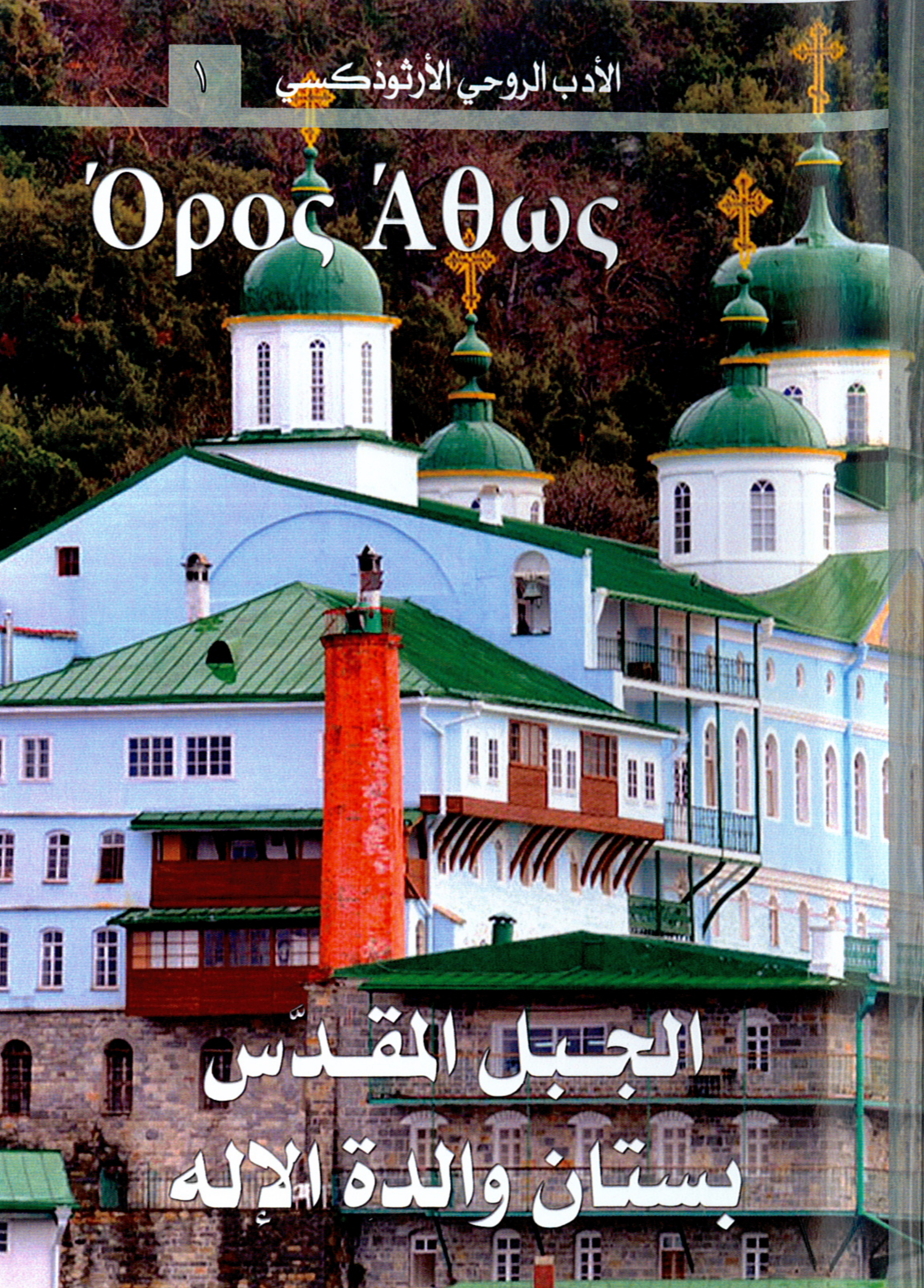


١
الأدب الروحي الأرثوذكسي
Όρος Άθως
الجبل المقدّس
بستان والدة الإله

سلسلة الأدب الروحي الأرثوذكسي ١

بستان والدة الإله

الجبل للنشر والتوزيع

التراث السلافي الأرثوذكسي

الكتاب : بستان والدة الإله.

المترجم : عامر هلسا .

الناشر : الجبل للنشر والتوزيع .

الطبعة : الأولى ، ٢٠١٦.

رقم الإيداع : ٢٢٢٧٥٨/ ٢٠١٦

للطلب داخل جمهورية مصر العربية :

دار مجلة مرقص : ٢٨ شارع شبرا - ٢٥٧٧٠٦١٤

للطلب داخل المملكة الأردنية الهاشمية :

٠٠٩٦٢٧٩٦٥٠٠٣٣٢

للطلب داخل لبنان وسوريا والإستعلام عن اماكن التوزيع:

٠٠٩٦١٣٦٠٣٧٨٣-٠٠٢٠١٠٠٥٨٧٧٩٢٢ - ٠٠٢٠١٢٧٧٣٩٧٧٧٢

بستان والدة الإله

للمؤرخ الكنسي / ألكسندر دفوركين

وتاريخ الرهبنة الصربية في آثوس

من الموسوعة الأرثوذكسية

(تحت مراجعة بطريرك موسكو وسائر روسيا كيريل)

ترجمة / عامر هلسا

مراجعة : الدكتورة / يوليا بيتروفا

دليل الكتاب



بستان والدة الإله

الجبل المقدس

بستان والدة الإله

يتجاوز تاريخ الرهبنة الآثوسيّة ألف سنة ونصف. بحسب التقاليد القديمة جاء الرهبان الأوائل إلى هنا في القرن الرابع في عهد الإمبراطور الروماني قسطنطين الكبير. اليوم يسكن في آثوس الرهبان من جنسيات مختلفة، ومعظمهم، بالطبع، من اليونان.

لم تطأ قدم المرأة أرض آثوس على مدى أكثر من ألف سنة، وبحسب النظام الداخلي للجبل المقدّس لا يُسمح للرهبان بأن يكون عندهم حتى إناث الحيوانات. السيّدة الوحيدة المقيمة هنا والمكرَّمة كرئيسة الجبل هي والدة الإله، وهي التي تمتلك السلطة الروحية في شبه الجزيرة، وقد اشتهرت هنا إيقونات عديدة لها. لكلّ دير من أديرة آثوس إيقونات والدة الإله التي ارتبطت بها تقاليد عجيبة. يُسمّى جبل آثوس مصدراً للروحانية الأرثوذكسية للعالم المعاصر. لا يزال يحتفظ الجبل المقدّس بالممارسة القديمة للصلاة القلبية و"الجهاد الذهنيّ" المعروف في الشرق الأرثوذكسي بالهدوئية، أيْ ممارسة الصمت.

يقول البعض إنّ الحياة في آثوس صعبة للغاية، والبعض الآخر أنها أسهل منها في أيّ مكان آخر...

وأيضاً يقولون إنّ السماء تصير أقرب هناك بالذات.

آلة الزمن

يوجد في القدس نفق حُفظ حتى أيّامنا من عصر النبي إشعياء. يرد ذكره في الإصحاح العشرين لسفر الملوك الرابع*. أثناء حصار الآشوريين للمدينة كان الماء يصل أورشليم عبر هذا النفق. لم تكن في المدينة مصادر خاصّة بها لتوريد المياه، فأمر الملك حزقيا مقدَّماً بشقّ نفق في الصخرة وذلك لتزويد المدينة بالماء وقت الحصار. اليوم يمكن المرور عبر هذا النفق بسهولة. الماء يتسرّب في القعر فقط، فيمكنك أن تخلع حذاءك وتشعل شمعة أو فانوساً وتمشي المسيرة بكاملها (حوالي ٨٠٠ متر) حافي القدمين عبر الصخرة كلها.

بقي هذا النفق بلا تغيّر على مدى آلاف السنين. تظهر على الحيطان آثار أعمال أتباع الملك حزقيا، فمن الممكن أن تفهم كيف وبأيّة آلة كانوا يقطعون الحجر، بصاقورٍ أم بفأسٍ. يمكنك أن تضع يدك في آثار الضربات هذه وتشعر بالصلة بإنسان كان قد ترك يوماً هذه البعجة، أيْ بالصلة الحسّية بأحد معاصري النبي إشعياء. وهذا نوع من أنواع آلة الزمن...

---

* أيْ سفر الملوك الثاني في الترجمات من النصّ العبري .

إنّ الشعور باستعادة التسليم من جيل إلى جيل هو شعور عجيب، حيث ترى وتمسك في يديك وتتأمّل أشياء كان قد تركها أحد في هذا المكان في أزمنة سحيقة. لقد قُدّر لي أن أشعر في آثوس بما قد شعر به في الغالب علماء الآثار في مدينة بومبي، فمن المعروف أنه لمّا تمّ اكتشافها وُجد كل شيء مطمَّراً بالرماد والغبار البركاني ولذلك حُفظ كما كان في يومِ الكارثة. تخطر هذه المقارنة على بالي عندما أتذكّر دير القدّيس بندلايمون في آثوس حيث وجدتُ نفسي وكأنني في العالم ما قبل الثورة البلشفية، وهو عالم لم يتغيّر فيه شيء وقد تجمّد الزمان فيه، وكأنني تمكّنت بمساعدة آلة الزمن من لمس ما لم يعدْ له وجود بهذا الشكل المتكامل مثل: الصور القديمة والمظاهر الداخلية القديمة والكتب القديمة... وأكثر من ذلك، شربتُ هناك الشاي المصنوع قبل الثورة، أيْ الذي تم إحضاره إلى الدير قبل الثورة. لغاية ذلك الوقت قد أوشك احتياطه أن ينفد ولم يكن الرهبان يستخدمونه إلا قليلاً وهم يقدّمون من الاحتياط الذي كان يبدو منذ نصف قرن غير نافد لبعض الضيوف فقط. كنت أفتح بحذر علب الشاي القديمة التي ختمها أحدٌ في يومٍ من أيام الماضي البعيد... هذه العلب تمّ شراؤها من تبرّعات ناس أتقياء تخفى أسماؤهم عليّ إلى الأبد. وها أنا الآن أفتح هذه العلب وأسكب الماء الغالي على هذا الشاي

وأشربه وأذكر المحسنين الغير معروفين. كان هؤلاء الناس يوماً يتبرّعون للدير ويساعدونه بالنقود ويرسلون له الطرود. فوصلتني صدقتهم هذه في أواخر القرن العشرين.

الدير الروسي

كاد دير القديس بندلايمون في فترة زيارتي الأولى لآثوس (صيف ١٩٨١) في حالة إهمال مرعب، وهو أشبه بمدينة مهجورة خالية من الناس. في بداية القرن العشرين كان يسكن فيه حوالي ثلاثة آلاف راهب. ولكن بعد الثورة لم يصلْ ناس جدد تقريباً، إلا بعض المهاجرين. مع ذلك، في أوائل السبعينات سُمح لأول مرّة لمجموعة صغيرة من الرهبان من الاتحاد السوفييتي بالوصول إلى آثوس، وقبل زيارتي الأولى بقليل وصلت هناك المجموعة الثانية. لم تكن السلطات تسمح بمغادرتهم الاتحاد السوفييتي، لأنّ الرهبان الذين يستقرّون في آثوس يحصلون على الجنسية اليونانية ممّا يعني الهجرة. من ناحية أخرى، كانت السلطات اليونانية تنظر نظرة ارتياب إلى المنحدرين من الاتحاد السوفييتي. وفي النتيجة لم يوجد في الدير الضخم في تلك الفترة إلا نحو عشرين راهباً كان نصفهم في سنّ متقدّمة جداً. لذلك كان من المستحيل حفظ النظام والترتيب على أرض الدير الشاسعة وفي مبانيه.

كلها، كانت بعض المباني الضخمة التي تضرّرت من حرائق شديدة قائمة محترقة وكأنها تنظر إلى العالم بفتحات النوافذ الفارغة المسودّة.

كان ضيوف الدير القليلون ينزلون في الفندق الذي كان آنذاك في حالة إهمال شديد مثل الأحياء العشوائية لنيو يورك. الآن قد تمّ ترميمه وتبييضه ويلمع بلاطه المصقول وبالكاد يتّسع للحجّاج. مبنى الفندق واقع خارج الدير، ولكن بما أنني كنت أولاً روسياً، وثانياً طالباً في أكاديمية لاهوتية سُمح لي بأن أنزل داخل الدير، فسكنت في قلاية رهبانية.

بدا لي أنّ المساكن كثيرة حتى لثلاثة آلاف شخص، وهي لا نهاية لها. كم من غرفة للضيوف ومسكن فاخر للحجّاج الأكثر إكراماً كانت هناك! كان يمكن التجوّل في الممرّات بلا نهاية ودخول الصالون حيث كان يتمّ استقبال الجنرالات أو المساكن الفاخرة للدوقات الكبار أو مكتب رئيس الكهنة... لم يتغيّر شيء منذ ذلك الوقت، فنفس الصور معلّقة على الحيطان، ونفس الأوراق موزّعة على المكاتب، وكان يمكن ببساطة أخذ وتصفّح ومشاهدة الدفاتر ولمس الأشياء التى لم يلمسها أحد منذ ذلك الوقت. في مكتبة الدير كان

بإمكاني تصفّح الكتب المخطوطة التي ترجع إلى القرنين العاشر والحادي عشر، المكتوبة على ورق الرقّ والمصوّرة، ومثلها تُحفظ في المتاحف تحت زجاج مضادّ للرصاص. كما تمكّنت من قراءة مخطوطة ذكريات رئيس أساقفة بروكسل باسيليوس (كريفوشيين) الذي كان في الفترة ما بين الحربين العالميتين راهباً في الدير ويعمل في مكتبته. كنت أقرأ تلك الدفاتر المكتوبة بخطّ يد واضح لعالِم اللاهوت البارز من أيّامنا، الذي صار رئيس الكهنة فيما بعد، طوال يومٍ أو يوم ونصف ولم أستطع أن أتوقف عن القراءة. طبعاً، هذا المؤلَّف قد تمّ إصداره لاحقاً والآن يمكن لكلّ واحد أن يجده ويقرأه. ولكن مخطوطة الراهب الآثوسي تلك كانت أوّل النسخ للكتاب وأقربها إلى صاحبه.

النظافة الآثوسية

آثوس هو مكان عجيب. وأحد أسباب ذلك هو أنه عندما تتخيّل مجتمعاً ليس فيه امرأة واحدة بل رجال فقط، تنشأ أمام عينيك صورة شقة رجل أعزب، حيث البيض متشيّط على المقلاة والملابس مبعثرة وكل الأشياء منقلبة ونسيج العنكبوت في أركان الغرفة. ولكن الوضع مختلف تماماً في آثوس. هناك ترتيب مثاليّ ونظافة مثالية. تجد

هناك تواصلاً قلبياً عجيباً بين الناس. طبعاً، جبل آثوس بعيد عن الكمال ككلّ الأماكن في أرضنا المصابة بالخطيئة. ولكن، في رأيي، هو مكانٌ كل شيء فيه أقرب إلى الكمال. لا يتركك ولا للحظةٍ شعور بأنّ هذه التربة مفعمة بالصلاة، سواء أكنت واقفاً في كنيسة بيزنطية لم تتغيّر إطلاقاً منذ عصر إنشائها، أو كنت صاعداً إلى الجبال ماراً بمنزل ناسكٍ، أو كنت جالساً في مكتبة دير عمره عشرة قرون...

التوقيت البيزنطي

حياة آثوس الداخلية كلها هي حياة خاصّة، وهي في جوهرها مثل تلك التي كانت في العصر البيزنطي: بلا كهرباء، بلا سيّارات... كان هكذا في الثمانينات، أمّا الآن فللأسف قد تغيّرت أشياء كثيرة. التوقيت هو بيزنطيّ أيضاً. منتصف الليل هو مغيب الشمس، وباقي الوقت يتمّ حسابه من المغيب. وفي كلّ شهر يتمّ ضبط الساعات، لأنّ وقت المغيب يختلف من شهر إلى آخر. وكذلك يختلف الوقت في أديرة مختلفة، لأنّ بعضها أقرب إلى البحر بينما يقع البعض الآخر في أعالي الجبال. وبشكل عام يبدو كأنّ الوقت في آثوس لا حركة له.

مساهمة روسيا

النصيب الذي أدّاه الروس لآثوس مذهل. في كلّ دير، حتى لو كان "يونانياً" بحتاً، تجد دائماً شيئاً من الثقافة الروسية، سواء أكانت هدايا من الأسرة القيصرية (عائلة القيصر الأخير أو من الأجيال السابقة)، أو أطباق روسية أو سماورات الخ. الصلة بروسيا تشعر بها دائماً. أو، مثلاً، قد تسمع أنّ الدير الفلاني احترق وأعيد بناؤه من التبرّعات المجموعة في روسيا.

زهرة في الكأس

يأتيك الشعور بتميّز هذا المكان لسبب آخر أيضاً، وهو أنّ كلّ واحد يسعى إلى تحقيق ما يريده الآخر، قبل أن يتمّ التعبير عن ذلك بصوت مسموع. ورداً على ذلك تسعى أنت أيضاً إلى تخمين ما يريده الآخر لتسرع في تحقيقه. وخدمة القريب كهذه تمنحك فرحاً عجيباً خاصاً. أتذكّر قصّة من هذا القبيل. وصلتُ إلى آثوس مع صديقي جيفري ماكدونلد الأمريكي الأرثوذكسي، وهذه كانت ثاني زيارة لي في صيف ١٩٨٢. قضينا ليلة في دير بانتوكراتور. جلسنا في الشرفة حتى وقت متأخر، أيْ حتى أطبق الظلام، ونحن نتحدّث مع راهب

يوناني ساكن في الدير. ثمّ انصرفنا إلى قلالينا، وعندما كنا نستعدّ إلى النوم طُرق الباب فجأة. فتحنا، وإذا بذلك الراهب الذي تحدّثنا معه، وقد جاءنا بكأس الماء وفيه برعم زهرة ضخم منغلق. قال: **"ضعوه على النافذة. عند بزوغ الفجر يتفتح وأوّل ما ترونه بعد رجوعكم من القدّاس هو زهرة متفتحة."** فانصرف.

كان هذا عجيباً جداً، ليس كما في العالم الخارجي... ولكن في آثوس من الطبيعي جداً أنّ الإنسان يريد ببساطة أن يُفرح الضيوف بجمال الزهرة.

مشاة البحرية

حُفظت هنا بلا تغيّر تقريباً طقوس الخدمة الإلهية على حالها كما كانت في المسيحية البيزنطية للقرون الوسطى. تنار الكنائس بالشموع والقناديل فقط. يقام معظم الخدمة في ظلام، فعلى سبيل المثال، لا يتلو الرهبان المزامير الستة إلا عن ظهر القلب، شأنها شأن أجزاء أخرى كثيرة من الخدمة. تبدأ صلاة نصف الليل وصلاة السحر والظلام قائم، لأنّ الليل هو وقت يقظة الرهبان. العالم نائم، وقوى الشرّ سائدة في الظلام، أمّا الرهبان جنود المسيح فينطلقون للمعركة وهم يحمون جميعنا ويدافعون عنّا.

قام بروفسور أنثروبولوجيا أمريكيّ بملاحظة ممتعة، خاصّة بالنسبة لإنسان غير أرثوذكسي، وهو يقارن بين الرهبنات التي يعرفها ووحدات الجيش: "**إذا كان يمكن مقارنة البندكتيين الفرنسيين بالمشاة، والفرنسيسكانيين الإيطاليين الغير منضبطين والطائشين بالقوات الجويّة، فالرهبان الآثوسيون هم مشاة البحريّة بانضباطهم الصارم والتجارب الفائقة الصعوبة عند تدريبهم. ولكن هؤلاء الجنود من وحدات النخبة الذين هم على أهبة الاستعداد دائماً لا خوف لهم من أيّ عدو!**".

نظام النهار و... الليل

تبدأ الخدمة الإلهية في الأديرة المختلفة في أوقات مختلفة: من الساعة الواحدة والنصف إلى الساعة الثالثة والنصف صباحاً بتوقيتنا، وتستمرّ حتى السادسة والنصف أو الثامنة والنصف صباحاً عندما ينتهي القدّاس. في الأديرة اليونانية يتناول الرهبان القدسات الإلهية ثلاث مرّات في الأسبوع عادة، ولذلك يكون في كل قدّاس متناولون كثيرون. إذا لم يكن يوم صيام، فبعد الخدمة الإلهية ينصرف الرهبان كل واحد إلى أعمال طاعته ويجتمعون للفطور عند الظهر. ثمّ يلي وقت الراحة، فكما في البلدان ذات المناخ الحارّ تُقسّم فترة النوم في آثوس

إلى قسمين: قليلاً في الليل، وقليلاً في وقت النهار الأكثر حرارة. بعد ذلك أعمال طاعة من جديد، وفي وقت العصر تقام صلاة المساء خلال ساعة واحدة تقريباً، ثمّ يتناولون العشاء. إذا كان يوم صيام، فتكون هذه أوّل وآخر وجبة طعام. إذا لم يكن يوم صيام، فيأكلون للعشاء ما قد أكلوه للفطور، ولكن بارداً. بعد العشاء تقام صلاة النوم. عندما يحين الظلام تُغلق بوابة الدير، وكل راهب يقضي وقته بطريقته، ولكل منهم قانون صلاة ليليّ خاصّ. وحتى إذا كانت الخدمة تبدأ في الساعة الثانية والنصف ليلاً يستيقظ الرهبان قبل ساعة منها على الأقلّ لإتمام قانونهم الشخصي الصباحيّ.

عشية الأعياد يقيمون السهرانية، وذلك بمعنى الكلمة، لأنها تستمرّ طول الليل. أطول صلاة حضرتها استمرّت حوالي ستّ عشرة ساعة: ابتدأت صلاة الغروب الكبرى حوالي الساعة الثامنة مساء، وانتهى القداس عند الظهر. ولكن ذلك كان عيد الدير. أمّا السهرانية العادية فتستمرّ حوالي سبع - ثماني ساعات.

سمعتُ مرّات كثيرة في آثوس أنّ حياة الصلاة المكثّفة مثل هذه لا تذهب هباءً، فإذا كان الإنسان يقضي كل الوقت في الكنيسة ويصلّي باستمرار ويكشف أفكاره يومياً، وحتى إذا لم يكن إنساناً

جيداً يسعى إلى أن يكون هكذا، فلا يسعه إلا أن يبدأ يتغيّر إلى الأحسن.

طعم الخبز بالسفرجل

الطعام في آثوس بسيط جداً وصياميّ. الرهبان يأكلون قليلاً جداً، وفي أيام الاثنين والأربعاء والجمعة يُسمح بوجبة واحدة في اليوم، ولكن للضيوف تقام وجبة إضافية صباحاً بعد القداس. يقدّمون عادة للفطور الشاي من الأعشاب والخبز بالمربّى. يخبزون الخبز من طحين مجروش مرّة في الأسبوع أو في عشرة أيام ويأكلونه حتى ينفد، وبعد ذلك فقط يخبزون الخبز الجديد. لذلك يكون الخبز الآثوسي يابساً بعض الشيء في معظم الأحيان. ولكنني حضرتُ مرّة مائدة صباحية حيث كان الخبز طازج الطبخ وهو لا يزال ساخناً. ومع الخبز قدّموا الشاي ومربّى السفرجل. وضعتُ المربّى على الخبز كالعادة وقطمت قطعة، وإذا بي أتجمّد في مكاني اثر شدّة الطعم المذهلة، فكان هذا الشعور مفاجئاً جداً، رغم أنّ تلك كانت أشياء في غاية البساطة.

قد تعوّدنا في حياتنا على الأشياء البسيطة ولا ننتبه إليها ولا نشعر بطعمها وبالفرح الذي تأتينا به، ونرغب دائماً في أشياء أكثر تعقيداً

وأناقة، وهي أيضاً نزهق منها بسرعة، وهكذا طول الوقت. ولكن الفطور بعد عدّة أسابيع من الحياة في آثوس كشف لي من جديد جمال أبسط الأشياء، ويجب القول إنّه لم يكن لي فطور ألذ في حياتي.

كتاب المزامير التشوفاشي

في آثوس عرفتُ كثيراً عن الحياة الكنسية في روسيا، بما أنني، وأنا ساكن في المهجر، لم أعرف شيئاً تقريباً عن حياة الكنيسة في الأقاليم وحياة المؤمنين البسطاء. حفظتُ في ذاكرتي حتى الآن حديثاً مع شمّاس شاب. كان من تشوفاشيا**، وكان جميع أهله مؤمنين أرثوذكس مخلصين. حدّثني كيف كان مع أمّه وإخوته وأخواته يذهب إلى الكنيسة. كانت أقرب كنيسة واقعة على بُعد أربعين كيلومتراً عن قريتهم. لم تكن هناك حافلات، فكانوا يذهبون مشياً: ينطلقون يوم الجمعة صباحاً، ومساء السبت يبلغون مقصدهم. كانوا يذهبون وسط الثلوج والعواصف ويبيتون في مكانٍ بالقرب من الكنيسة وفي الصباح يحضرون القدّاس. أراني هذا الشمّاس كتباً

** تشوفاشيا – إحدى الجمهوريات في روسيا الاتحادية، تقع في مركز روسيا الأوروبية.

مخطوطة أعدّتها له أخته الصغرى عندما عرفت أنه مسافر إلى آثوس. كان هناك كتاب القنداق باللغة التشوفاشية المنسوخ باليد وكتاب المزامير مثله وأشياء أخرى... أرادت الصبية أن تنسخ العهد الجديد كله، ولكنها سمعت أنّ دار الكتاب المقدّس قد أصدرته باللغة التشوفاشية ويمكن إيجاده في الخارج بسهولة. ثمّ اتضح أنّ دار الكتاب المقدّس لم تكن قد أصدرته باللغة التشوفاشية.

بصراحة، دمعت عينيّ وأنا أنظر إلى تلك الدفاتر السميكة في غلف من قماش مشمّع، وإلى تلك الكلمات الغامضة المكتوبة بالأبجدية الكيريلية. إنه جهاد الإيمان الذي نادراً ما نجده في أيامنا! كانت البنت في السادسة عشرة من عمرها. كنت أتخيّل ما كان يمكنها أن تشتغل به: أن تذهب إلى مكانٍ ما، أن تتواصل مع أترابها، أن تحضر الديسكو، وها هي تجلس في أمسية طويلة تنسخ الكتب لكي يستطيع أخوها أن يقرأها بلغته الأم. كان كل شيء منسوخاً بقلم حبر ناشف في اللونيْن الأحمر والأزرق، بخطّ مستقيم جميل وإنْ كان خطّ طفل. أتذكّر من طفولتي أنك إذا حاولت أن تكتب شيئاً بخط جميل، فالسطور الأولى هي التي تجذب النظر، أمّا فيما بعد فتأتي الحروف معوجّة وتظهر اللطخ، وتبدأ السطور في الحركة...

لكن في تلك الدفاتر كان كل شيء مختلفاً: الخط جميل ومستقيم من البداية إلى النهاية، ولم تكن هناك لطخ على الإطلاق. حدّثني الشمّاس أنه بعد الثورة لم يصدر أي شيء من الأدب الأرثوذكسي باللغة التشوفاشية، ولذلك إذا كانوا يخدمون بلغتهم الأمّ في البيت، استخدموا الكتب البالية الصادرة قبل الثورة أو كانوا ينسخونها.

طيّار تجربة

حدّثني راهب آخر عن صديقه وهو شمّاس من روسيا. كان طيّار تجربة واختبر طائرة ذات يوم. سقطت الطائرة في وضع حلزوني وصارت تنهار نحو الأرض. كان الطيّار غير مؤمن ولم يفكّر أبداً في الله، وفجأة تذكّر، والطائرة منهارة إلى الأسفل، كيف كانت جدّته تتحدّث عن القديس نيقولاوس. فلحق أن ينطق في نفسه: **"أيها القديس نيقولاوس، ساعدني!"**. وإذا بالطائرة تستدير عند الأرض وتهبط هبوطاً سلساً على العجلات. كان الطيّار في حالة صدمة. أخرجوه من الطائرة وهو غير قادر على الانحناء أو الانتصاب. عندما فاق بعد عدّة أيام قال إنه سيخدم الله في الكنيسة. بطبيعة الحال، حاول الجميع أن يصرفوه عن نيّته ورفضت زوجته أن تتبعه. فاستقال من العمل وترهبن.

أمِن السهل أن تكون راهباً؟

ذات يوم عندما زرت آثوس للمرّة الرابعة عام ٢٠٠١ منطلقاً من روسيا، صار أحد معارفي وهو رجل الأعمال ميسور الحال يطرح أسئلة على راهب في أحد الأديرة اليونانية حول حياته راغباً في أن يعرف إذا كان من الصعب أن يكون الإنسان راهباً. فردّ الراهب – وهو فرنسي من أسرة عريقة نبيلة اعتنق الأرثوذكسية – أنه من السهل جداً أن تكون راهباً، بينما أصعب شيء هو أن تصير راهباً، أيْ أن تعزم على ذلك. منذ أن صار راهباً، كلّ يوم بالنسبة له عيد، فجميع أعباء الاهتمامات الدنيوية رُفعت عنه، وباستطاعته أن يتأمّل في حياته الروحية ويتحدّث مع الله ويصلي له. لكن الحياة في العالم أصعب بكثير: يجب التفكير في الخبز اليومي وإعالة الأسرة، وهذا يشغلك عن الصلاة. قال إنه ينحني أمام جهاد المسيحيين العائشين في العالم ويحترمهم كثيراً، لأنّ حياته هو أسهل بكثير من هذه الناحية.

اعتراف قبل الموت

أتذكّر اعترافي في دير غريغوريو. في ذلك الوقت (كان هذا في عام ١٩٨١) حدّثني الهيجومينوس جاورجيوس الذي لا يزال عائشاً القصّة التالية. قُدّر له أن يقبل اعتراف أحد الكهنة قبل موته في مدينة يونانية صغيرة. كان للكاهن طفلان – الابن الأكبر والبنت الصغرى – وبينهما فرق شاسع في السنّ. اتجه الابن إلى أثينا للدراسة، وأصابته مصيبة فقُتل. وُجدت جثته في مكان مقفر. كان من الواضح أنه ضُرب حتى الموت. بالرغم من أنّ الابن كان متديناً وعاش حياة التقوى لم يوجد على رقبته صليب. وكان غياب الصليب هذا يسبّب عذاباً روحياً لأبيه المسكين. لم يتمّ القبض على القتلة آنذاك وبقيت الجريمة مستترة.

مرّ الوقت، فكبرت ابنة الكاهن وظهر لها صديق. كان الشاب أكبر منها وكان يحضر إلى بيتهم ويجد استقبالاً جيداً. كان الكاهن الذي قد ترمّل معجباً به. ولكن الشاب كان يتردّد في التقدّم لها باقتراح الزواج. بعد فترة، عندما اتضح أنهما يحبّان بعضهما البعض، طلب العريس من الكاهن أن يعرّفه، فوافق. اعترف الشابّ بأنه أحبّ ابنته وأسرته ولكنه يعتبر نفسه غير مستحق لأنه قاتل.

منذ وقت طويل كان مرتبطاً بجماعة سيئة، وذات يوم تجوّلوا حتى وقت متأخر وضايقوا شاباً في الشارع. كان ذلك في أثينا. صار ذلك الشاب يدعو إلى ضميرهم ممّا زاد من غضبهم فأخذوا يضربونه وضربوه حتى الموت. وعندئذ نزع هذا العريس الذي كان أصغر واحد في الجماعة الصليب الذهبي من رقبة الشاب، ولا يزال يحمل هذا الصليب معه. عند ذلك أرى الشاب للكاهن الصليب الذي تعرّف فيه على صليب ابنه الضائع الذي حصل عليه في المعمودية. في تلك اللحظة شعر الكاهن بأنّ الأرض تتزعزع تحت قدميه وأوشك على السقوط، فتضرّع إلى الله لكي يمنحه القوّة. أمّا الشاب فاستطرد قائلاً: **"أنت ترى أنّ إنساناً منبوذاً من الله مثلي لا يمكن أن يكون زوجاً لابنتك. سامحني."**

أجاب الكاهن: **"كيف أستطيع ألا أقبلك في أسرتي، والله نفسه يقبل توبتك؟"**. تمّ الزفاف، وأخفيت جميع صور ابن الكاهن بحجّة ملائمة، لكي لا يعرف زوج ابنته أنه قاتل أخي زوجته. لم يعرف أحد هذا السرّ. تحدّث الكاهن للأب جاورجيوس عن ذلك في اعترافه قبل موته.

الأب مكسيم

يمكن أن تلقى في الجبل المقدس الرهبان من كل أنحاء العالم ومن بلاد مختلفة. لكي يبقى الراهب في آثوس يكفيه أن يصل إلى أحد الأديرة، وإذا قُبل فيه ينتهي الأمر عند ذلك. ليس هناك مطالب أو شروط خاصّة يجب تنفيذها. ولكن عدد الراغبين في البقاء في آثوس إلى الأبد ليس بكبير، والسبب هو أنّ الحياة هنا صعبة نسبياً وليس كل واحد قادراً على تحمّلها، فهناك دائماً نقص في النوم وفي الأكل وصلوات طويلة... ولكن بشكل عام، هذا نمط حياة سليم، ولمعظم رهبان الجبل المقدّس حالة صحّية جيّدة.

ذات مرّة قرّرنا مع جيفري ماكدونلد الصعود إلى قمّة جبل آثوس التي تبلغ ألفين وثلاثة وثلاثين متراً فوق مستوى سطح البحر، ويبدأ الجبل عند البحر مباشرة، فيجب الصعود هذه المسافة كلها. بدأنا الصعود مساءً، وعندما صعدنا حوالي ثمانمئة متر أخذنا نبحث عن ملجأ للمبيت. طرقنا باب قلاية منعزلة (وهي كوخ يسكنه عادة راهب أو راهبان)، فاستقبلنا شيخ في سنّ الوقار ذو لحية بيضاء كثيفة. قال إنّ اسمه الأرشمندريت مكسيم وفرح جدّاً إذ عرف أنني من روسيا. اتضح أنه كانت له دورة تمرين منذ وقت طويل في أكاديمية موسكو

اللاهوتية ولا يزال يتكلم الروسية جيداً نسبياً.

كان الأب مكسيم يتنسّك في آثوس خمسين سنة إلا قليلاً، وفي السنوات الأخيرة سكن هذه القلاية طلباً للعزلة. استقبلنا كما لو كنا أقرباءه وقدّم لنا للعشاء كل ما كان عنده وهو يفتح المعلّبات من ذخيرته القليلة واحداً بعد الآخر. في الصباح بعد القدّاس وبعد أن زوّدنا بالخبز والزيتون ودلّنا على الطريق سمح لنا بالانطلاق إلى الجبل. فانطلقنا بلا عفش، تاركين كل أغراضنا عنده لنأخذها عند العودة. كان الصعود شديد الانحدار، ولكن مع كلّ منعطف كانت تظهر مناظر تجعل الأنفاس تتحبس من جمالها. كنا نتوقف مراراً لنستريح ونتلفت حولنا ونأخذ الصور ونتلو الصلوات والمزامير. عندما انتهت منطقة الغابة وأخذت الصخور تظهر، تجمّدنا مدهشين في مكاننا، فكانت كلها مرمراً أبيض! في نهاية المطاف انتهت النباتات كلها فتابعنا صعودنا وسط المرمر الأبيض اللامع على السطح. لم يسبق أن رأيت شيئاً من هذا القبيل أبداً، وكأنني وجدت نفسي في حكاية روسية شعبية منسية من طفولتي يقال في بدايتها: "ما وراء البحار وما وراء الغابات يوجد جبل من المرمر كله بياض".

توجد على قمّة الجبل كنيسة صغيرة مكرّسة لتجلّي الرب، حيث

تقام السهرانية والقداس مرّة في السنة في هذا العيد، وفوقها بقليل صليب حديدي كبير يتوّج الجبل. جلسنا على الأحجار قليلاً وفحصنا أطراف المكان ورتّلنا طروبارية التجلي وصرنا ننزل شيئاً فشيئاً. استغرق الطريق من قلاية الأب مكسيم وطريق العودة حوالي ستّ ساعات. استقبلنا الستاريتس قائلاً: "**أين كنتما كل هذا الوقت؟ قد صرت أقلق عليكما. لم يحدث شيء، إن شاء الله؟**". أكّدنا على أن كل شيء على ما يرام، ولم نفعل شيئاً سوى الصعود والنزول. فافترض الأب مكسيم: "**لعلكما قرأتما هناك على القمّة خدمة السهرانية كلها، وإلا أين كنتما ضائعين كل هذا الوقت؟ هذا الطريق لا يستغرق عندي أكثر من ساعتين!**".

جورجيو

كانت هناك حالات عن تراجع الذين قد قرّروا البقاء في آثوس عن عزمهم. مثلاً، تحدّث لي أحد معارفي المقرّبين الذي من روما، الأرشمندريت الأرثوذكسي غيرموغين وهو من المهاجرين الروس، قصّة ابن روحي له وهو بارون إيطالي وبروفسور. كان هذا البارون يحبّ زيارة آثوس وأراد أن يصير راهباً هناك. ولكن الأب غيرموغين لم يكن يعطيه بركته لهذه الخطوة. في نهاية المطاف عزم على أن يسافر

دون بركة الأب غيرموغين. سكن في أحد أديرة آثوس كمريد للرهبنة وعاش هكذا حوالي سنة. كان يلتزم بجميع القوانين وأعمال الطاعة بغيرةٍ شديدة وهو يفرح لهذا التحوّل في حياته. ثمّ بعد سنة قال له رئيس الدير: **"والآن يا جورجيو جهّز نفسك، رسامتك الرهبانية ستتمّ غداً"**. قضى جورجيو الليلة بلا نوم وهو يفكّر في خالته التي في روما وفي ضيعته التي في كلابريا وفي والدته التي هناك وفي أشياء أخرى... وفي الصباح عند بزوغ الفجر جمع حقيبته ورجع مباشرة إلى روما.

"الآباء العراة"

يوجد في آثوس نسّاك استثنائيون كثيرون. قد تسمع في الكثير من الأديرة عن "الآباء العراة" الذين يعيشون منعزلين في المغاور في طرف شبه الجزيرة الجنوبي الصخري الصعب الوصول وليس لهم أي اتصال بالناس لسنوات كثيرة (باستثناء راهب يأتيهم بالقدسات الإلهية)، حتى أنّ ملابسهم كلها قد بليت. وكثيراً ما تسمع القصص عن سيّاح ألمان دخلوا بالصدفة إحدى هذه المغاور ووجدوا فيها آثار مسكن فقير ولكن لم يجدوا من يسكنه. ثمّ، كما يقال، حدّثوا عن ذلك في أقرب دير وأرادوا أن يُروا الآخرين هذه المغارة، ولكن فشلوا في إيجادها... على قمّة جبل آثوس اكتشفنا أنا وجيفري شيئاً من هذا ،

القبيل وهو ليس بمغارة، بل أشبه بشقّ بين كتلتين من المرمر. كان فيه مفرش من القشّ وبجانبه برميل حديديّ فيه ماء نتن يعوم فيه كيس مع أوراق الخسّ. عند نزولنا صادفنا ساكن قمّة الجبل، وهو راهب شاب نسبياً (كانت لحيته سوداء) لابساً قنبازاً قديماً قد بهت لونه. كان صاعداً إلى فوق يحمل جرّة فخارية مع الماء للشرب، علماً بأنّ أقرب مكان من قمّة الجبل حيث يوجد الماء للشرب يقع على ارتفاع ١٢٠٠ متر. أخذنا بركته وسألنا عن اسمه (كان اسمه داماسكينوس) وقدّمنا له الخبز والزيتون المتبقي لدينا فقبلها وفرحنا لذلك. هذا هو أحد اللقاءات الآثوسية العابرة...

أربعة أيام

عندما كنت متوجهاً إلى آثوس لأوّل مرّة لم أتخيّل أبداً ما الذي يمكن أن أراه هناك. فكّرت أن هناك عدّة أديرة يمكن مشاهدتها في خلال يومين وتركت آثوس لآخر أيام زيارتي الأولى إلى الأماكن المقدّسة في اليونان التي استغرقت شهراً. كان في مخططي أن أقيم هناك أربعة أيام. ولكن النتيجة كانت مختلفة تماماً. اتضح أنّ آثوس هو شبه جزيرة ضخمة طولها حوالي ٨٠ كيلومتراً وعرضها ثمانية كيلومترات، وذلك إذا اعتبرنا المسافة المباشرة. أما إذا عبرتَ شبه

الجزيرة مشياً في طرقات جبلية ملتوية فتزداد المسافة ضعفين تقريباً. لم تكن هناك سيارات إلا قليلاً، ووسيلة النقل الوحيدة التي كان يمكن تقصير المسافة بمساعدتها هي العبّارة التي تمرّ على امتداد الشاطئ مرّة في اليوم. إنّ الجبل المقدّس أذهلني، وبالطبع، امتنعتُ عن جميع خططي الأخرى وبقيت هناك عشرة أيام، أيْ كلّ الوقت المتبقي لديّ.

كنت قد حسبت كلّ شيء بالساعات: سأغادر آثوس منطلقاً بالعبّارة، ثمّ أركب الحافلة المتوجهة إلى سالونيك، ومن هناك أركب القطار الليلي إلى أثينا، وفي الصباح عندي طائرة إلى نيو يورك. من المفروض أن أصل المطار قبل ساعتين من إقلاع الطائرة، فكان كل شيء متفقاً حتى آخر لحظة.

لم تكن عندي رغبة في المغادرة على الإطلاق. قضيت الليلة الأخيرة في دير بندلايمون، وفي الصباح قبل وصول العبّارة ذهبت لأودّع الأب سيرجي، وقد نشأت بيننا صداقة حميمة. وإذا بالأب سيرجي يقول لي: **"لماذا تغادر؟ ابقَ معنا أربعة أيام أخرى"**. أجبت أنني أرغب في البقاء جداً، ولكنني لا أستطيع لأنّ عندي تذكرة الطائرة إلى نيو يورك للغد. كرّر الأب سيرجي: **"اسمعني، ابق لأربعة أيام"**. فأجبت مجدداً

أنني لا أستطيع، رغم أنني لا أريد أن أغادر، وأنّ روحي تتعذب وأنه يمزّق قلبي بكلامه، ولكن إذا فاتتني الطائرة فتذكرتي – وهي أرخص تذكرة إلى أمريكا – ستضيع وليست معي نقود لأشتري غيرها، وفي غضون ذلك ستبدأ السنة الدراسية... وبشكل عام، يا أب سيرجي، أنت لا تفهم، هنا آثوس وكل شيء هنا مختلف تماماً، وهناك عالم حيث تطير الطائرات بحسب المواعيد، ولا ينتظرون هناك المتأخرين ولا يعوّضون عن التذاكر... ولكن الأب سيرجي ظلّ يكرّر بإصرار غريب نفس الكلام عن الأربعة الأيام التي يجب عليّ أن أبقى فيها في آثوس. وأخيراً قلت: **"طيب، يا أب سيرجي، مع السلامة، ها هي عبّارتي، أنا ذاهب، إن شاء الله سأرجع وأراك من جديد!"** وغادرت.

ركبت حافلة ليلية في سالونيك ووصلت إلى مطار أثينا. قد تأخرتُ قليلاً وانطلقتُ راكضاً نحو مكتب تسجيل المغادرة والعرق يسيل مني، وإذا بلافتة كبيرة تعلن عن بدء إضراب المراقبين الجويين عن العمل وإلغاء جميع الرحلات لمدة أربعة أيام... لم تكن عندي نقود ولا إذن خاصّ للعودة إلى آثوس. فقعدت أربعة أيام في أثينا – المدينة الخانقة الكثيرة الغبار – أفكّر في خطاياي.

أهمّ مهمة على الأرض

قد يكون عند القارئ انطباع بعد حديثي وغيره من الأحاديث عن آثوس أنه مكان بعيد عن الحياة الواقعية. ولكن هذا ليس صحيحاً. الحياة الآثوسية، في رأيي، هي حياة أكثر واقعية من كل ما هو موجود. بل على العكس، نحن الذين نعيش حياة شبه واقعية في عجلة دائمة، وفي انشغال دائم، وسط اضطرابات نفسية ومحاولات لتلبية احتياجاتنا وبناء الخطط وتحقيق رغباتنا التي لا تتحقق لسببٍ ما... لكن في آثوس يعيشون حياة "ملموسة" جداً، بحسب التعبير المعاصر. وهي حياة أرضية ملموسة فائضة. ويمارس رهبان آثوس أهمّ مهمّة على الأرض، وهي الصلاة لأجل الجميع. من يعرف، لولا آثوس وصلاته، هل كان عالمنا سيستمرّ في البقاء للآن؟

***ألكسندر دفوركين

*** البروفسور ألكسندر دفوركين (مواليد ١٩٥٥) – باحث لاهوتي روسي ومؤرّخ الكنيسة، تلميذ الأب يوحنا مايندورف والأب ألكسندر شميمن.

يمكن متابعته بوضوح على أساس الوثائق المحفوظة. من الأرجح أن الرهبان من الأصل الصربي كانوا يعيشون في أديرة مختلفة في الجبل المقدّس وذلك قبل إنشاء ديرهم القومي بكثير.

ولكن الحدث الأبرز في تاريخ الجماعة الصربية الآثوسية كان مجيء الأمير راستكو (الابن الثالث للأمير ستيفان نيماني) في عام ١١٩١ إلى الجبل. دخل راستكو كمريد للرهبنة في دير القديس بندلايمون الروسي حيث قبل الرسامة الرهبانية بعد قليل باسم سابا على شرف القديس سابا المتقدّس، وبعد فترة من الوقت انتقل إلى دير فاتوبيذي.

في عام ١١٩٧ انضمّ إلى سابا والده الذي تخلّى عن العرش لصالح ابنه الثاني (ستيفان المتوّج أوّلاً) وقبل الرسامة الرهبانية باسم سمعان. تمّ إنشاء العديد من الأبنية في دير فاتوبيذي على حسابهما، كما تم تجديد الكنيسة المهدّمة من قبل القراصنة في منطقة بروسفورا وشراء بعض المتوخيونات (المنشآت) المهجورة التي سكنها فيما بعد المنحدرون من صربيا. وتكريماً لنشاط القدّيسين سابا وسمعان أدخل رهبان فاتوبيذي اسميهما في قائمة المحسنين إلى الدير.

أثناء زياراتهما لمقدّسات جبل آثوس انتبه الأب والابن إلى أطلال دير صغير في شمال شرق شبه الجزيرة بين ديريْ زوغرافو وإسفيغمينو، بقي

مهجوراً بعد تخريبه من القراصنة. كان هذا الدير الذي أُسّس في سنة ١٠٧٦ على أبعد تقدير مكرساً لدخول والدة الإله إلى الهيكل ويحمل اسم "خيلانداري" (Χελανδαρίου) وفي أواخر القرن الثاني عشر كان مُلكاً لفاتوبيذي. توجّه القديس سمعان إلى الإمبراطور ألكسي الثالث أنجيلوس (الذي كان ستيفان المتوّج أوّلا متزوجاً من ابنته) بطلب تجديد هذا الدير ليكون صربياً، فلقي هذا الطلب دعم جميع أديرة الجبل المقدس (ما عدا فاتوبيذي) ورئيس المجلس التنفيذي للجبل. ففي النصف الثاني من عام ١١٩٨ أصدر الإمبراطور مرسوماً مختوماً بالذهب بشأن نقل دير خيلانداري إلى سمعان وسابا وترفيع الدير إلى رتبة دير ملكيّ وإعفائه عن كل سلطة بما فيها سلطة رئيس المجلس التنفيذي (Πρωτεπιστάτης) وإعادة كافة الأملاك والأراضي الخاصة بالدير له. كان تأسيس دير صربي في الجبل المقدس مرحلة مهمّة في طريق الكنيسة الصربية نحو الاستقلال، وقد تمّ التمهيد لهذا الأمر في عهد الأمير ستيفان نيماني، أمّا إنجاز هذه المهمّة فتولاها ابناه القدّيسان سابا وستيفان بعد رقاد والدهما.

في عام ١١٩٩ أهدى الإمبراطور لدير خيلانداري دير زيغ (يوفانيتسا) ليكون منشأة تابعة له، وفي نفس السنة اقتنى القديس سابا قطعة أرض في كارييس حيث أسّس قلاية فيها كنيسة على اسم القديس سابا المتقدّس ليتوّحد فيها من أجل الجهاد الرهباني وأدخل نظاماً خاصّاً هناك ("نظام قلاية كارييس")، فأصبحت مركزاً ثانياً

للرهبنة الصربية في آثوس. من الأرجح أنه في نفس الفترة تم وضع النظام الرهباني لدير خيلانداري. أعطى القديس سمعان قبل موته بقليل (رقد في ١٣ فبراير ١٢٠٠) شهادة مُلكية لدير خيلانداري (هلكت النسخة الأصلية في بلغراد عام ١٩٤١) تؤكّد إهداء أراضٍ واسعة له بجوار بريزرن. إضافة إلى ذلك، اقتنى القديسان سمعان وسابا ١٤ ديراً صغيراً لتكون ملكاً لخيلانداري، كما اشترى الأخير لاحقاً المزيد من الأراضي في منطقة البرزخ. كانت أملاك الدير في تلك الفترة تسمح له بأن يتسع لمائتيْ راهب، إلا أن عددهم في أوائل القرن الثالث عشر لم يتجاوز ٩٠ شخصاً. كما تبرّع ستيفان المتوّج أوّلاً بأملاك كثيرة لدير خيلانداري في صربيا.

كان الدير على مدى تاريخ الدولة الصربية يتمتّع برعاية حكّامها، ابتداء من سلالة نيمانيتش، ثمّ سلالتيْ خريبيلانوفيتش وبرانكوفيتش. كما كان الدير يحظى برعاية الأباطرة الروم (وذلك حتى فترة الحملات العسكرية لستيفان دوشان في النصف الثاني من القرن الرابع عشر)، وقد حُفظ في أرشيف الدير الشهادات الإمبراطورية الصادرة عن كل من ميخائيل الثامن باليولوج وأندرونيك الثاني وأندرونيك الثالث إضافة إلى عدد من الشهادات المذكورة في الوثائق التاريخية في العصور اللاحقة.منذ بداية إعادة إعمار دير خيلانداري على أيدي الرهبان ذوي الأصل الملوكي احتلّ مكانة خاصة في الجبل المقدس إذ أنه كان ديراً رئيسياً لصربيا بل ديراً

ملكياً مرعياً من حكّامها وأحد أهمّ مراكز الحياة الكنسية والثقافية للدولة وهو واقع على مسافة بعيدة عن حدودها. لم يكن يتمتع بمثل هذه المكانة دير زوغرافو البلغاري ولا دير بندلايمون الروسي ولا أي من الأديرة اليونانية المجيدة لشبه الجزيرة الرهبانية. يحتلّ خيلانداري المكانة الرابعة في ترتيب الأديرة (بعد اللافرا الكبيرة وفاتوبيذي ودير إيفيرون) ويدخل في عدد الأديرة الخمسة التي يمكن أن يتمّ انتخاب رئيس المجلس التنفيذي للجبل المقدس من رهبانها. وحتى أواسط القرن الرابع عشر رُسم العديد من رؤساء خيلانداري ورهبانه كرؤساء الكهنة في صربيا.

من الناحية الاقتصادية والإدارية والدفاعية كان خيلانداري عبارة عن منظومة معقدة متفرّعة لا تزال آثارها موجودة حتى يومنا هذا. كان التهديد الدائم من هجمات اللصوص في البرّ وخاصة غارات القراصنة من جهة البحر يجعل الرهبان يهتمّون ليس بإنشاء الكنائس والمنازل فحسب، بل بتحصين الدير بما في ذلك الأساقيط والقلالي الكبيرة والمرافئ. بلغ الدير أوج ازدهاره (بعد أن تضرّر كباقي أديرة الجبل المقدّس من غارات الكتالانيين عام ١٣٠٨) في عهد الملك ستيفان أوروش الثاني ميلوتين (١٢٨٢- ١٣٢١)، حيث تم إنشاء كنيسة جديدة زُيّنت برسومات جدارية (١٣١٧- ١٣٢١) لا تزال موجودة حتى اليوم، وتم تجديد مباني الدير الكثيرة، فتحوّل خيلانداري إلى حصن

متين قادر على تحمّل حصار طويل الأمد. أكّد الملك ميلوتين بشهادته الصادرة عام ١٢٩٩ جميع أملاك الدير السابقة وخصّص له تبرّعات غنية جديدة.

منذ أواسط القرن الرابع عشر حصل الدير على ذخائر جديدة إضافة إلى تلك المقدّسات الكثيرة التي كان القديس سابا قد جاء بها من الشرق، فأصبحت مع الوقت رموزاً خاصة بخيلانداري. أثناء زيارته إلى الدير عام ١٣٤٨ تبرّع الملك ستيفان دوشان من بين التقدمات الأخرى بإيقونة والدة الإله العجائبية التي بشفاعتها استولى على مدينة سيرّس عام ١٣٤٦. الإيقونة موجودة في الدير حتى الآن، ولكن في العصور اللاحقة أصبحت الكثير من العجائب التي تمّت بشفاعتها تُنسب إلى إيقونة والدة الإله ذات الثلاث أيدي التي تم إحضارها من مدينة سكوبيه (من الأرجح في أواخر القرن الرابع عشر) والتي تُكرم اليوم كرئيسة دير خيلانداري (ولغاية القرن السابع عشر قد تشكّل في الدير التقليد الذي طابق هذه الإيقونة العجائبية بتلك التي جاء بها القديس سابا من فلسطين والتي كانت خاصة بالقديس يوحنا الدمشقي بحسب التقليد).

خلال ربع القرن في الفترة ما بين ١٣٤٥- ١٣٧١ عندما كان الجبل المقدس يدخل في "مملكة الصرب والروم" اثر النجاحات العسكرية للملك ستيفان دوشان كان الصرب يتمتعون بمكانة رائدة في آثوس،

حيث أنّ أوّل عضو للمجلس التنفيذي كان يُنتخب من الصربيين. وكاد دير القديس بندلايمون الذي قد شكّل فيه الصرب منذ وقت طويل الأغلبية الساحقة من الرهبان أن يتحوّل إلى دير صربي ثانٍ بشكل رسمي. ولكن الحكّام الجدد الذين كان هدفهم إقامة مملكة صربية - يونانية لم يكونوا ينتهجون سياسة اضطهاد الأديرة اليونانية، بل حصلت كل الأديرة الآثوسية تقريباً على تبرّعات سخية من الحكام الصرب وشهادات تؤكّد أملاكها وامتيازاتها، كما أصدر الملك دوشان عدداً من مراسيمه باللغة اليونانية.

في عهد خلفاء الملك دوشان أصبح دير القديس بولس المؤسَّس من قبل القديس بولس الذي من دير كسيروبوتام في القرن العاشر والواقع في جنوب آثوس ديراً صربياً. في بداية القرن الرابع عشر هُجر هذا الدير وفقد استقلاله فصار قلاية لدير كسيروبوتامو. وفي الثلث الأخير من القرن الرابع عشر تم تجديده من قبل الراهبيْن الصربييْن ذوي الأصل النبيل جيراسيم (برانكوفيتش) وأنطونيوس (باغاش). صار ديرا كسيروبوتام والقديس بولس متحديْن بحسب الاتفاق بينهما. كان لدير القديس بولس رعاة نبلاء وأغنياء فاكتسب مكانة "اللافرا الصربية الثانية" بسرعة، وحتى القرن السادس عشر بقي مرعياً من عائلة "برانكوفيتش". تدلّ مكتبته الغنية والشهادات حول نشاط الترجمة فيه على أن الدير كان منذ وجوده مركزاً مهمّاً للحياة

السلافية في آثوس. كان دير ديونيسيو صربياً في البداية أيضاً وقد أسّس في نفس الفترة تقريباً (في عام ١٣٦٢ على أبعد تقدير) وسُمّي على اسم مؤسّسه الذي كان مرشداً روحياً للشيخ إشعياء الناسك في برية القديس بولس قبل تحويلها إلى دير. كما ينسب التقليد تأسيس دير سيمونوس بيتراس إلى الأمير الصربي أوغليشا.

ابتداء من القرن الخامس عشر بعد استيلاء الأتراك على مقدونيا وسقوط المملكة الصربية وخاصة بعد مصادرة أملاك الأديرة من قبل السلطات العثمانية في عام ١٥٦٩ (مع حفظ الحق في إعادة شرائها) تدهورت الحالة الاقتصادية للأديرة الآثوسية بشكل ملحوظ (حتى الربع الأخير من القرن الخامس عشر، ساهم في تخفيف هذا الوضع الدعم من طرف مارا برانكوفيتش أرملة السلطان الصربية الأصل. ومع ذلك احتفظ خيلانداري بمنشآته الكثيرة داخل الإمبراطورية العثمانية، بل اقتنى أملاكاً جديدة هناك).

منذ أواخر القرن الخامس عشر صار أمراء فالاشيا ومولدافيا هم المحسنين إلى ديريْ خيلانداري والقديس بولس من الناحية المادية. وفي القرن السادس عشر ابتدأت المساعدات تأتي من القياصرة الروس حيث صار خيلانداري يلعب دوراً كبيراً في علاقة روسيا بالجبل المقدس في القرنين ١٧- ١٨. وحتى نهاية القرن السابع عشر بقي الدير أكبر مركز للثقافة السلافية في البلقان وقد أثر تأثيراً كبيراً على الحياة الروحية في صربيا.

أمّا المعلومات الموثوق بها حول عدد رهبان الأديرة الصربية ٢٢٠ راهب في خيلانداري و٩٠ راهب في دير القديس بولس عام ١٧٦٥.

مع بدء هجرة الصرب الكبيرة على رأسهم البطريرك إلى الأراضي النمساوية عبر الدانوب منذ عام ١٦٩١ وخاصة بعد عقد صلح بلغراد عام ١٧١٧، ضعفت صلة الأديرة الصربية بصربيا إلى حد كبير وتقلّص عدد الرهبان الصربيين في الجبل المقدّس ليحلّ محلّهم البلغار تدريجياً (بما في ذلك من مقدونيا). أصبح دير القديس بولس في القرن الثامن عشر ديراً يونانياً، أمّا خيلانداري فلغاية أواخر ذلك القرن تحوّل إلى دير بلغاري بل إلى أحد أهمّ مراكز النهضة القومية البلغارية.

عاد تدفق الرهبان الصربيين إلى خيلانداري بعد زيارة الملك الصربي ألكساندر الأوّل للجبل المقدس عام ١٨٩٦. بعد الحرب العالمية الثانية كانت إعادة إعمار الدير المقفر تتمّ بفضل المهاجرين الصربيين الساكنين خارج يوغوسلافيا. حالياً يسكن في خيلانداري حوالي ٣٠ راهباً صربياً.

تمّ إعلان قداسة رؤساء الكهنة الآتي ذكرهم من الصرب الذين تنسّكوا في الجبل المقدس: رئيس أساقفة صربيا سابا الثاني، تلميذه وخليفه يوانيكيوس الأول، إفستافيوس، نيقوديموس، دانيال، والبطريرك الصربي أفرام الثاني.

تمت الترجمة من الروسية (أثوس) (الموسوعة الأرثوذكسية).

+ يتجاوز تاريخ الرهبنة الآثوسية ألف سنة ونصف. بحسب التقاليد القديمة جاء الرهبان الأوائل إلى هنا في القرن الرابع في عهد الإمبراطور الروماني قسطنطين الكبير. اليوم يسكن في آثوس الرهبان من جنسيات مختلفة، ومعظمهم، بالطبع، من اليونان.

+ السيّدة الوحيدة المقيمة هنا والمكرَّمة كرئيسة الجبل هي والدة الإله، وهي التي تمتلك السلطة الروحية في شبه الجزيرة، وقد اشتهرت هنا إيقونات عديدة لها. لكل دير من أديرة آثوس إيقونات والدة الإله التي ارتبطت بها تقاليد عجيبة.

+ يُسمّى جبل آثوس مصدراً للروحانية الأرثوذكسية للعالم المعاصر. لا يزال يحتفظ الجبل المقدّس بالممارسة القديمة للصلاة القلبية و"الجهاد الذهنيّ" المعروف في الشرق الأرثوذكسي بالهدوئية أيْ ممارسة الصمت.



التراث السلافي الأرثوذكسي

Al Jabal